مكتبة الإسكندرية من الفقى إلى زايد

◄ يوسف القعيد

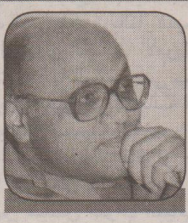

كان من حسن حظى أن عاصرت مكتبة الإسكندرية منذ افتتاحها. وعرفت مديرها الأول الدكتور إسماعيل سراج الدين الذى أسس لها دورها المتميز الذى جعل منها قلعة من قلاع الحضارة المصرية. تشكل إضافة لتاريخها القديم الذى يُعد جزءاً من تطور العقل الإنسانى أكثر من كونها مَعلما مصرياً.

تولى الدكتور إسماعيل سراج الدين مكتبة الإسكندرية من ٢٠٠٢ وحتى ٢٠١٦، وله أكثر من ٥٠ كتاباً، بالإضافة إلى ٢٠٠ مقالة وبحث علمى فى مجالات العلم والثقافة والأدب.

أما الدكتور مصطفى الفقى ابن محافظة البحيرة التى أنتمى إليها وأعتبر نفسى بلدياته. فهو يستحق مقالا قائما بذاته لتعدد الأنشطة التى قام بها وكثرة مؤلفاته. علاوة على أنه من أبرز كتّاب الصحافة المصرية الآن. يكتب فى أكثر من جريدة، مع أن الكتابة بالأهرام تكفيه وزيادة. أيضاً فإن قائمة مؤلفاته كثيرة جداً، منها:

- لقطات من العمر - شخصيات على الطريق - عرفتهم عن قرب - حوار العصر ماذا جرى لمصر - الانفجار العظيم والفوضى الخلاقة - العرب الأصل والصورة - ليالى الفكر فى فيينا - الرؤية الغائبة - حوار الأجيال - تجديد الفكر القومى - الأقباط فى السياسة المصرية - الشعب الواحد والوطن الواحد - التقارب الأمريكى السوفيتى ومشكلة الشرق الأوسط.

عرفت الفقى عندما أصبح مستشارا بمكتب رئيس الجمهورية، الرئيس الراحل حسنى مبارك. وتحول مكتبه إلى برلمان مصرى تلتقى فيه النخبة المصرية والعربية والعالمية فى مودة وحب. وهو إنسان بسيط، خدوم، لو لم يجد من يخدمه لبحث عمن يقدم له خدماته.

عندما تولى مكتبة الإسكندرية حوّلها إلى مركز للعقل المصرى والعربى والدولى، تلتقى فيها الحضارات وتتحاور العقول فى الهم العام. حضرت بعض ندواته فى المكتبة. وأيضاً الأنشطة التى أقامها فى فرع المكتبة فى بيت السنارى بالسيدة زينب القريب من دار الهلال. ولعل آخرها كان إفطاراً رمضانياً سبقته ندوة أدارها الدكتور مصطفى للعقول التى كانت حاضرة. وتناولت كل ما يمكن تناوله من الشأن العام.

وهو إنسان ودود وحكاء نادر. ما من مكان عمل فيه إلا وأضاف إليه. وتحوّل إلى نقطة مضيئة فى تاريخه. حتى عندما كان دبلوماسياً فى لندن. سمعت الكثير عن مآثره وخدماته التى يقدمها للمصريين ولغيرهم.

ورغم كونه دبلوماسياً نادراً فإنه كاتب من طراز رفيع. فالكتابة عشقه الأول والأخير. ويُحافظ عليها بدأب ونشاط. ولأنه لا توجد كتابة جيدة دون قراءة أكثر جودة. فهو قارئ نهم يُتابع كل حرف مكتوب ويتذوقه، ويستوعبه، ويتمثله، ويضيف إليه من خبراته ومن معارفه. لدرجة أننى فكرت أكثر من مرة أن أسأله: من أين يأتى بالوقت الذى يُمكنه من قراءة ما قرأه وكتابة ما كتبه؟.

ولكنى خشيت أن أبدو أمامه حاسداً له. والحسد ورد فى القرآن الكريم. فاكتفيت بالمتابعة دون نقاش. علماً بأن تجربته لها من الأهمية مكان كبير بالنسبة لأى مثقف. بصرف النظر إن كان من أبناء مصر أو الوطن العربى أو العالم. لا أذكر أين ومتى قرأت تعبير: «المثقف العضوى»؟.

ولكنه قفز إلى ذهنى واحتله تماما وأنا أكتب هذا الكلام عن مصطفى الفقى. فهو لا يعتبر القراءة ممكنة دون معايشة. وأيضاً دون كتابة. وكل قراءة جيدة لابد أن تنتج عنها كتابة أكثر جودة. خاصة أنه كان بينهما متابعة لما عاشه الكاتب من تجارب ورآه من تطورات.

من المؤكد أن إدارته لمكتبة الإسكندرية شكلت إضافة مهمة وأساسية لدورها ومكانتها التى تستند لتاريخ قديم عريق. شهدت به الدنيا كلها. وجعلت المكتبة تستعيد هذا العطر الجميل. وأضاف لها هو الكثير جداً من جهده وعرقه وإيمانه بما يقوم به. وقدرته الفريدة على أن يشكل إضافة فى المكان الذى يعمل فيه. سواء كان دبلوماسياً فذاً، أو كاتباً جيداً، أو صاحب دور فى العمل العام.

أصل إلى المدير الجديد الدكتور أحمد زايد. عرّفتنى عليه الدكتورة إحسان سعيد، الأستاذ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى إحدى ندوات المركز المهمة. كان شعلة من النشاط. وإن كان هذا النشاط له أعماقه التى تتبدى فيما يقوله وما يقوم به. ثم التقينا كثيراً جداً فى رحاب العمل العام. وفى كل مرة أدركت أنه يحب عمله، ويؤمن به، ويقدم له أغلى ما فى حياته.

حتى عندما أصبح عضواً فى مجلس الشيوخ. فإن زملاءه فى هذا المجلس تحدثوا أمامى عن حرصه على حضور الجلسات والمشاركة بالنقاش فى كل القضايا المطروحة. وإن كانت بعيدة عن اهتمامه الشخصى. رأيته أكثر من مرة فى جامعة القاهرة، فى رحاب كلية الآداب ومكاتبها ومدرجاتها. والعبق العلمى الذى تشيعه.

ولا تتصور أن العمل العام وتبعاته شغله عن النتاج العلمى. فقد كان ولا يزال وسيظل حريصاً عليه. باعتباره يمثل شرعيته الأساسية. سواء فى مصر أو خارجها. وهو رغم هذه المشاغل العلمية الكثيرة والمتنوعة يحرص على الكتابات الصحفية. يتناول فيها الشأن العام.

أغلب ما كتبه يندرج تحت علم الاجتماع. وهموم المصريين، ومشكلات الدنيا كلها. من زاوية باحث جاد أراد أن يقدم رؤيته للدنيا وما يجرى فيها. ولهذا أتوقع أن تشكل إدارته لمكتبة الإسكندرية إضافة لدورها الذى نأمله جميعاً منه.